﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التَّوبة: 26]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بينَ حيثيَّاتِ الانكسار، ومآلاتِ التَّثْبيت والانتصار

لمَّا ذكر اللّهُ سبحانَه حالَ المؤمنينَ في غزوةِ حُنَيْنٍ أوَّلَ الأمرِ مِنَ الانكسارِ والانْهزامَ، وكان ذلك رُبَّما يُوهِمُ أنَّ هذه الحالَ هي آخِرُ أحوالِهم؛ ذَكَرَ في هذه الآيَةِ ما آلَ إليه أَمْرُهُم مِنَ النَّصْرِ والتَّأييدِ والظَّفَرِ، وما آلَ إليهِ أَمْرُ أعدائِهم مِنَ الهزيمَةِ والتَّعْذيب، "فأذْهَبَ روعَهم، وأزال حيرتَهم، وأعاد إليهم شجاعتَهم، واستنصر الرَّسولُ ربَّه، فأنزل اللّهُ جنودًا مِنَ الملائكة، لم يرها المسلمون بأبصارهم، بل وجدوا أثرَها في قلوبهم، بما عاد إليها من رباطة جَأْشٍ، وشِدَّة بأس"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾: (السِّينُ والكاف والنُّونُ): تدورُ اشتقاقاتُها على ضدِّ الحركَةِ والاضْطِراب[2]؛ فهي دالَّةٌ على الاستقرار[3]، ومنه: قولُهم لكُلِّ شيءٍ ماتَ: قد سَكَنَ[4]؛ لذَهاب حركتِه، ومنه: سُمِّيت النَّارُ سَكَنًا؛ لأنَّها مُعِيْنَةٌ على الاسْتِقْرارِ والإقامةِ؛ إذْ بها يُعدُّ الطَّعامُ ويُستَدفأُ ويُستضاءُ[5]، وسكَنَ بالمكانِ: أقامَ فيهِ[6]، والسَّكينَةُ: الأَمْنُ

(1) حومد، أيسر التَّفاسير، ص: 262.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سكن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سكن).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سكن).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سكن).

والطُّمَأنينَةُ[1]، وزَوالُ الرُّعْبِ[2]، وذلك لما في الرُّعْبِ والخَوْفِ مِنَ الاضْطِرابِ الحاصِلِ في القَلْبِ، ومِن هذا قولُ اللّهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾.

2) ﴿جُنُودًا﴾: (الجيمُ والنُّونُ والدَّالُ): تدورُ تصاريفُها على مَعْنَى التَّجمُّعِ والنُّصْرَةِ، ومنه: الجُنْدُ؛ وهُمُ الأعوانُ والأنْصارُ[3]، وذهبَ بعضُ أهلِ العِلْمِ بالعربيَّةِ، إلى أنَّ أصلَ المادَّةِ دالٌّ على صلابَةِ الشَّيءِ وغِلَظِهِ، ومنه: الجَنَدُ، وهي الأرضُ الصَّلْبَةُ، ومنه: سُمِّيَ العسْكَرُ جُنْدًا؛ لِما فيهِم مِنَ الغِلْظَةِ[4]، والجُنودُ جَمْعُ جُنْدٍ؛ إذِ الجُنْدُ يُجْمَعُ على جُنودٍ وأجنادٍ[5].

3) ﴿جَزَآءُ﴾: (الجيم والزَّاي والياءُ): تدلُّ اشتقاقاتُها على قيامِ شيءٍ مَقامَ غيرِهِ، ومكافأَتِهِ إيَّاهُ[6]، ومنه قولُهم: جَزَى عنِّي هذا الأَمْرَ، أَيْ: قَضاهُ[7]، والجَزاءُ: ما فيه الكِفايَةُ مِنَ المُقابَلَةِ، خيرًا كان ذلك أو شرًّا[8]، ومنه قولُ اللّهِ سبحانَه: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وجزيتُ فلانًا بما فعل جزاءً، إذا كافأْتَه، قال اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: 36][9]، وقد جَرَى على ألسُن العرب: (جَزاء سِنِمَّار)، يقال ذلك للرَّجل قد عمل خيرًا فكُوفِئَ بالشَّرِّ، قال الشَّاعر[10]:

جَزَانِي جَزَاهُ اللّهُ شَرَّ جَزَائِهِ *** جَزَاءَ سِنِمَّارٍ بِمَا كَانَ يَفْعَلُ

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خاطب اللّهُ تعالى المؤمنين فقال: ثُمَّ مِنْ بَعْدِ ما ضاقَتْ عليكمُ الأَرْضُ مع سَعَتِها،

(1) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب في تفسير الغريب، ص: 136.
(2) الرَّاغب، المفردات: (سكن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جند).
(4) الرَّاغب، مفردات ألفاظ غريب القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (جند).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جند).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جند).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (جزي).
(8) الرَّاغب، المفردات: (جزا).
(9) نشوان الحميريّ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (جزيت).
(10) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللُّغة: (باب ما جاء على فعلال). والسِّنِمَّارُ، بِكَسر السِّين والنُّونِ وشَدّ المِيم، يُنظر: الزبيدي، تاج العروس: 12/95، ونقل الأزهري في تهذيب اللّغة: 13/108، وابن منظور في اللسان: 4/382، قولَ أبي عبيد فيه أنّ سِنِمَّارَ اسمُ إسْكافٍ بَنَى لبعض الملوك قَصْرًا؛ فلمّا أَتَمَّهُ أَشرف به على أعلاه، فرماه منه غَيْرَةً منه أَنْ يَبْنِيَ لغيره مثله، فضُرب ذلك مثلًا لكلّ مَنْ فَعَل خيرًا فجوزيَ بضدّه.

وتَوْلِيَتِكُمُ الأعْداءَ أَدْبارَكُم؛ كشَفَ اللّهُ سبحانَه ما نزَلَ مِنَ البلاءِ عليكُم، فأنزلَ الأَمْنَ والطُّمأنينَةَ على رسولِهِ ﷺ وعلى المُؤمنين، فثَبَتوا، وأمدَّهُم اللّهُ ﷻ بجنودٍ مِنَ الملائكَةِ لَمْ يرَوْها، فنصرَهُم علَى أعدائِهِم، وعذَّب الجاحدينَ وحْدانيَّتَهُ ورسالَةَ رسولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وهذا الذي فعلهُ اللّهُ تعالَى بِهِمْ، هو عقوبَةُ الصَّادِّينَ عَنْ دينِهِ، المكذِّبينَ رسولَهُ[1] ﷺ.

نـزولُ السَّكينة عـلى المـؤمـنـين، وإمـــدادُهـــم بالملائكة والنَّصرِ المبين

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، حرفُ عطْفٍ دالٌّ على التَّرتيب والتَّراخي، وفي العَطْفِ بِهِ إشارَةٌ إلى عُلوِّ مَنْزِلَةِ ذلك الثَّبات، واسْتِبْعادِ أَنْ يَقَعَ نظيرُهُ في العادَة[2]، والتَّراخي في ﴿ثُمَّ﴾ على أَصْلِه؛ لأنَّه كانَتْ ثَمَّتَ مُدَّةٌ بينَ الاضْطِرابِ وحُلولِ السَّكينَة، وهي وإنْ لَمْ تَكُنْ شديدةَ الطُّولِ إلَّا أنَّه قد نُزِّلَ هذا الفاصِلُ الزَّمَنيُّ - لعِظَمِ الشِّدَّةِ الواقعَةِ فيه، وهَوْلِ المُصيبَةِ - مَنْزِلَةَ مَن طالَتْ مُدَّتُها؛ إذْ زَمَنُ الشِّدَّةِ يُخَيَّلُ طويلًا وإنْ قَصُرَ[3].

عَـظَـمَـةُ الثَّباتِ الذي أَنْزَلَهُ اللهُ سبـحـانَـه على المؤمنينَ في حُنَيْنٍ

دلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْعَلَمِيَّةِ:

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالعلَميَّة، في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾؛ لبيانِ عِظَمِ هذِهِ السَّكينَةِ وجليلِ مَنْزِلَتِها، فهيَ سكينَةٌ مِن عند الذي لَهُ الإحاطَةُ بِصفاتِ الجَلالِ والكمالِ والجَمالِ[4]، وما صدَرَ مِنَ العَظيم عظيمٌ، ومِنْ أَوْجُهِ عَظَمَةِ هذا النَّصْرِ: وقوعُهُ مع شدَّةِ ضَعْفِ المَنْصورينَ، وقوَّةِ المَنْصورِ عَلَيْهِمْ، وقد كان الرَّسول ﷺ في حاجة إلى هذه السَّكينة؛ لأنَّه أصابَه الحزنُ

تتجلَّى عَظَمَةِ النَّصْرِ في ضَعْفِ المَنْصورينَ وقُوَّةِ المدحورين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/189، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 190.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/425.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/20، والتَّحرير والتَّنوير: 10/158، وزهرة التَّفاسير: 6/3268.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/425.

والأسى، للفرار الجماعيِّ الذي حصل لأصحابه، حين مالتِ الكِفَّةُ لأعدائهم، وزُلزِلوا بالمفاجأة ببَوادر الانكسار، وكان المؤمنون الّذين ثَبتوا مِن حوله في حاجةٍ إلى هذه السَّكينة؛ ليزدادوا ثباتًا على ثباتهم، وإيمانًا على إيمانهم[1].

بَلاغَةُ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ:

قولُ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، فيه إظْهارٌ في مَوضِعِ الإضْمارِ، وذلك لأنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ثُمَّ أَنْزَلَ سكينَتَهُ على رسولِهِ ﷺ)، بإسْنادِ الفِعْلِ إلَى الضَّمير المسْتَتِرِ فيه؛ وذلك لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسْمِ الأعظم (اللّه) في قوله سبحانَه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾، ونُكْتَةُ الإظْهارِ: تَعْظيمُ شأْنِ هذه السَّكينَةِ وتَفْخيمُها؛ إذْ في إسنادِ الفِعْلِ إلى صريحِ الاسْمِ الأحسَنِ مِنَ المهابَةِ والجلالِ، ما ليس في إسنادِهِ إلى الضَّميرِ العائِدِ إليه.

تَعْظيمُ شَأْنِ السَّكينَةِ وتَفْخيمُها، دليلٌ على أهميَّتها

دلالَةُ الإضافَةِ في ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾:

في إضافةِ السَّكينَةِ إلى الضَّميرِ الرَّاجِعِ إلى اللّهِ سبحانَه، في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، تنويهٌ بشأنِها وبرَكَتِها، وإيماءٌ إلى أنَّها سكينَةٌ خارِجَةٌ عن مألوفِ العِبادِ؛ لكونِها ممَّا ليسَ لهُ سببٌ ظاهرٌ، ولا مُقَدِّمَةٌ بيِّنَةٌ، وإنَّما حصَلَتْ بمحضِ تقديرِ اللّهِ ﷻ وتَكْوينِه[2].

التَّنْويهُ بِشَأْنِ السَّكينَةِ، والإيماءُ إلى خُروجِها عنِ المألوفِ المعتادِ

بَراعَةُ الإظْهارِ في مَحَلِّ الإضْمارِ:

في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إظْهارٌ في محلِّ الإضْمارِ، وذلك لأنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ثُمَّ أَنْزَلَ سكينَتَهُ عَلَيْهِمْ)، فيعود الضَّمير في

وَصْفا الرِّسالَةِ والإيمانِ، عِلَّتانِ في الاِنْتِصارِ وحُلولِ السَّكينَةِ

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/242، (بتصرّف).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/158.

(عَلَيْهِم)، على المذْكورينَ قَبْلُ، في قوله ﷻ: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾؛ ونُكْتَةُ الإظْهارِ: الإعْلامُ بأنَّ وَصْفَي الرِّسالةِ والإيمانِ عِلَّتانِ في الانتصارِ بَعْدَ الفِرارِ، وحلولِ السَّكينَةِ بَعْدَ الخَوْفِ والرُّعْبِ[1].

بلاغة الكِنايَةِ:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كنايَةٌ؛ وذلك أنَّ العَبْدَ إذا خافَ فَرَّ ورجَفَ، وقَلْبُهُ مضْطَرِبٌ متحرِّكٌ، فإذا أَمِنَ سَكَنَ وثَبَتَ قَلْبُهُ، فلمَّا كان الأَمْنُ موجبًا للسُّكونِ؛ جُعِلَت السَّكينَةُ كنايةً عَنْهُ[2].

الأَمْنُ مِن موجِباتِ السَّكينة، والخَوْفُ جالِبٌ لِلاضْطِرابِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالرَّسولِ دونَ النَّبيِّ ﷺ:

في قولِهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ عُبِّر بالرَّسولِ دونَ النَّبيِّ؛ لأنَّ المقامَ لمَّا كان للرِّسالَةِ، وكان تأييدُ مُدَّعيها مِنْ علاماتِ صِدقِهِ في دَعْواهُ إيَّاها، وأنَّ مُرْسِلَهُ قادِرٌ على ما يُريد، خصوصًا إذا كان تأييدُهُ على وجْهٍ مخالفٍ لما جرَتْ بِهِ العادَةُ؛ جاءَ التَّعبيرُ بوصفِ الرِّسالَةِ دونَ وصفِ النُّبوَّةِ[3].

تأْييدُ مُدَّعي الرِّسالَةِ مِنْ عَلاماتِ صِدْقِهِ في دَعْواهُ إيَّاها

نُكْتَةُ ذِكْرِ الرَّسولِ ﷺ:

ذُكِرَ الرَّسولُ ﷺ في سياقِ إنْزالِ السَّكينَةِ، في قوله سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، مع أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمْ يصْدُرْ منه ما يُخالِفُ الثَّباتَ؛ وذلكَ زيادَةً في تعظيمِ الامْتِنانِ بِهِ؛ لأنَّ النُّفوسَ أَمْيَلُ إلى ما أُعْطيَهُ رسولُ اللهِ ﷺ، والقلوبَ عَلَيْهِ أَقْبَلُ؛ لاعتقادِ عظيمِ منزِلَتِهِ ورفيعِ شرَفِهِ[4]، ويَجوز أن يكون المرادُ إنزالَ سكينَةٍ زائدةٍ، على ما كان مستقِرًّا في قَلْبِهِ الشَّريفِ ﷺ.

النُّفوسُ أَمْيَلُ إلى ما أُعْطيَهُ الرَّسولُ ﷺ، والقُلوبُ عليه أَقْبَلُ

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/209.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/19، والخازن، لباب التَّأويل: 2/348.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/425.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/426.

سِرُّ تَقْديمِ ذِكْرِ الرَّسولِ الأكرم على المؤْمِنينَ:

تَكْريمُ النَّبيِّ ﷺ ورَفْـعُ شَـأْنِـهِ، مقرونان بكثرة ذِكْره في القرآن

في قَوْلِه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قُدِّمَ ذِكْرُ الرَّسولِ ﷺ على ذِكْرِ المؤمنينَ في هذه الآية الكريمة؛ تكريمًا لنبيِّهِ ﷺ، وإجابةً لندائِهِ النَّاسَ[1]، ولِكَوْنِهِ أَشْرَفَ المؤمنينَ، ومِنْ مُقتضَياتِ التَّقديمِ تقديمُ الأَشْرَفِ.

دِلالَةُ تَكْرارِ حَرْفِ الجَرِّ (عَلَى):

السَّكينَةُ النَّبويَّة سَكينَةُ اطْمِئْنانٍ عَلَى أَهْلِ الإيمانِ الذينَ مَعَهُ

أُعيدَ حَرْفُ الجرِّ ﴿وَعَلَى﴾، بعد حرفِ العَطْفِ، في قوله سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ للإيماءِ إلى ما بَيْنَ السَّكينَتَيْنِ مِنَ التَّفاوُتِ، فسَكينَةُ رسولِ اللهِ ﷺ سكينَةُ اطمئنانٍ على أهلِ الإيمانِ الذين معه، وسكينةُ ثقةٍ بالنَّصْرِ، بخلافِ سكينَةِ المؤمنينَ، فهي سكينَةُ ثباتٍ وشَجاعَةٍ، بعد الخَوْفِ والجَزعِ[2]، وفي تَكرارِ حرف الجرِّ أيضًا: إشْعارٌ بِأَنَّ السَّكينَةَ عامَّةٌ وليستْ خاصَّةً[3]، وأُكِّدَتْ في جانبِ المؤمنينَ؛ لكونِهم أَحْوَجَ إلى السَّكينَةِ، للخَوْفِ الطَّارئِ عَلَيْهِم، بخلافِ رسولِ اللهِ ﷺ، فلم تغادِر السَّكينَةُ قَلْبَهُ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِوَصْفِ الإيمانِ:

إيمانُ القُلوبِ، واطْمِئْنانُ النُّفوسِ بِالإيمانِ، عِلَّةٌ لِإنْزالِ السَّكينَةِ

في التَّعبير بوصفِ الإيمانِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، إشْعارٌ بِعِلَّةِ إنزالِ السَّكينَةِ، وهو الإيمانُ[4]، وعُبِّرَ بوصفِ المؤمنينَ دونَ المُسْلِمينَ للإيماءِ إلى أنَّ هذه السَّكينَةَ اختصَّتْ بِمَنْ آمَنَتْ قلوبُهم، واطمأنَّت نفوسُهُم بالإيمانِ[5].

سرُّ العدولِ عن ذكر الضَّمير المتَّصل إلى الاسم الظَّاهر:

الاحْتِراز مِن وجود المنافقين في صُفوف المُؤمنين، احتياطٌ وتحفُّظٌ

وإنَّما قَالَ: ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يَقُلْ: (وعَلَيْكُم)؛ لأنَّ الْخِطَابَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/158.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/56، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/158.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3268.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/56.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3268.

لِلْجَمَاعَةِ، وفيهم بَقِيَّةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ، فيَالَلَّهِ الْعَجَبُ مِن هَذِهِ الدِّقَّةِ فِي بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ[1].

دِلالَةُ تَنْكِيرِ ﴿جُنُودًا﴾ وجَمْعِها:

نُكِّرت كَلِمَةُ ﴿جُنُودًا﴾ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾؛ للإيماءِ إلى عَظَمةِ هذه الجُنودِ، فإنَّ الجُنودَ كانوا ملائكةً[2]، وقد يُفيد التَّنكير مع التَّعظيم التَّنويع؛ فتشمل غيرَ الملائكة، نحو تكثيرهم في أعين أعدائهم[3]، وجُمِعَت للإشْعارِ بكثْرَتِهِمْ، دونَ تحديدٍ لعددهم[4].

عَظَمَةُ الجُنودِ التي أَنْزَلَها اللهُ سُبْحانَهُ، دليلُ عظمتِه

دلالة جملة: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾:

وقعت جملة ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ نعتًا للجنود، فأفادت إظهارَ فضلِ اللهِ تعالى، وبيانَ عظيمِ رحمته في تثبيت المؤمنين، وفيها إعطاءُ العُذر لكلِّ من لم يرَ، ويكفي أنَّ اللهَ قال؛ ليكون هذا حقيقةً واقعة، والحقُّ ﷻ يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31][5]، أي: وأنزل مع هذه السَّكينة جنودًا مِنَ الملائكة لم تروها بأبصاركم، ولكنَّكم وجدتم أثرَها في قلوبكم، حيث عاد إليكم ثباتُكم وإقْدامُكم[6].

فضلُ اللهِ ورحمتُه في تثبيت أوليائه المصطَفَين

سرُّ الجمع في قوله: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾:

الدّلالَةُ على نفي رؤيتهم تلك الجنود في حالة اجتماعهم، أي: لم تروْها مجتمعين، فهناك مَن لمحها، وهناك مَن لم يرها[7]، "وهناك أشياءُ كثيرةٌ في الكون، موجودةٌ وتزاول مهمَّتها، ونحن لا نُدْرك كيفيَّة هذا الوجود، وليس معنى عدمِ إدراكنا لها، أنَّها غيرُ موجودة،

عدمُ رؤيةِ الغيبيَّاتِ في الكون، لا يعني عدمَ وجودِها

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/221.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/426.
(3) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/350.
(4) فقد ذَكَر جَمْعٌ مِنْ أهل العِلْمِ - مِنْهُم سعيدُ بن جُبيرٍ - أنَّهم كانوا خَمْسَةَ آلافِ مَلَكٍ، ينظر: الواحديّ، التَّفسير البسيط: 10/350.
(5) الشَّعراويّ، خواطر الشَّعراويّ: 8/5005.
(6) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/242.
(7) الشَّعراويّ، خواطر الشَّعراويّ: 8/5007.

وكلُّ الاكتشافات التي قدَّمها لنا العِلْمُ المعاصر كانت موجودةً، ولكنَّنا لم نكن نُدركُ كيفيَّة وجودِها من قبل، ... ويكفي أنَّ اللّه قال؛ ليكون هذا حقيقةً واقعةً"[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالاِسْمِ المَوْصولِ:

الكُفْرُ مِن أَسْبابِ اسْتِحْقاقِ العَذابِ

في التَّعبير بِالاِسْمِ المَوصولِ مِن قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، إيماءٌ إلى عِلَّةِ استحقاقِهم التَّعذيبَ، وهو الكُفْرُ، و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم المقصودون بالعذاب، "ولقد ساقوا أموالَهم كلَّها ليَثورَ حماسُهم برؤيتها، فَغَنِمَها المسلمون جميعَها، فكأنَّهم ساقوها ليأخذَها المسلمون غنيمةً باردةً، وساقوا نساءَهم وأولادَهم؛ ليزدادوا حماسةً برؤيتهم، فسباهُمُ المسلمون، وأذلُّوهم بسببهم، فكأنَّهم كانوا يُعِدُّون المائدةَ للمؤمنين"[2].

عِلَّةُ إيرادِ الاِسْمِ المَوْصولِ جَمْعًا:

دليلُ قُدْرَةِ اللهِ سبحانَه، وشَديدِ بَطْشِهِ بمن عاداه

إيرادُ الاِسْمِ المَوصول جَمْعًا، في قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فيهِ إِشْعارٌ بِكَثْرَةِ أهلِ الكُفْرِ الذينَ وقعَ عَلَيْهِمُ التَّعذيبُ، وذَلِكَ يقْتَضي عظيمَ قُدْرةِ اللّهِ سبحانَه، وشديدَ بَطْشِهِ بأعداءِ دينِهِ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا:

تَحَقُّقُ وصْفِ الكُفْرِ في أَعْداءِ الدِّينِ، مِنَ المُنكِرين والجاحِدين

جِيءَ بجملة صِلة الموصولِ، مُصَدَّرةً بفعلٍ ماضٍ، وهو ﴿كَفَرُواْ﴾، مِن قولِهِ سبحانَه: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدّلالَةِ على تحقُّقِ وصْفِ الكُفْرِ في أعداءِ دين اللّهِ سبحانَه، وأعداءِ رَسولِهِ ﷺ، وأنَّهم يستحقُّون ما نزل بهم، "فكان تعذيبُهم بالهزيمة والقتل، واستيلاءِ المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم"[3]، وفي التَّعبير بالصِّلَةِ فِعْلًا، إِشْعارٌ بأنَّ فيهِمْ مَن آمَنَ بَعْدَ ذلِكَ، ولم يسْتَمِرَّ على كُفْرِه[4].

(1) الشَّعراويّ، خواطر الشَّعراويِّ: 8/5005.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3269.
(3) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 332.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/426.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الكُفْرِ:

إغْراقُ أَهْلِ الكُفْرِ في البَاطِلِ، بِتَكْذيبِهِم جَميعَ ما أَوْجَبَ اللهُ تعالى الإيمانَ بِهِ

حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾ مِن قول اللهِ سبحانَه: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وهو المَكْفورُ بِهِ؛ لإرادَةِ العُموم؛ وذلك لأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مؤذِنٌ بذلك، والمعنى: كفَروا بِجَميعِ ما يَجِبُ أن يُؤْمِنوا بِهِ شَرْعًا، والكفرُ مناوأةٌ للهِ العليِّ، بإنكار شَرْعِه النَّقيِّ، والتَّنكُّب عن هديه الجَليِّ، والتَّصدِّي للرَّسول ﷺ والمؤمنين، بالحرب الضَّروس، وتأليب النُّفوس، ومحاولةِ استئصال شَأْفَة الدِّين، والمسارعةِ إلى إطفاءِ نورِه المبين، وقد كان عذابهم كبيرًا ؛ لاتِّساع دائرةِ كُفْرِهم، وتفاقُمِ أذاهم، في ذلك الأوانِ.

سِرُّ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْإِشارَةِ:

تَمْييزُ جَزاءِ الكافِرينَ أَكْمَلَ تَمْييزٍ وأَبْيَنَهُ

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالإشارَةِ، في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ليتميَّزَ جزاؤُهُمْ أكملَ تمييزٍ؛ إذِ الإشارَةُ في (ذَلِكَ)، إلى ما حلَّ بهم مِنَ التَّعذيبِ، فإذا تميَّزَ جزاؤُهُم؛ تبيَّنَ موجِبُ ذلك مِنَ الكُفْرِ المذكورِ بَعْدُ، أَبْلَغَ بيانٍ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإِشارَةِ الدَّالِّ على البُعْدِ:

شِدَّةُ العَذابِ الحالِّ بِالْكافِرينَ، مِن عدلِ اللهِ في عقابِهم وزَدْعِهم

في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أُوْثِرَ التَّعبيرُ فيه باسْمِ الإشارَةِ، الدَّالِّ على البُعْدِ ﴿وَذَٰلِكَ﴾، في قول اللهِ ﷻ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ إيماءً إلى عَظَمَةِ العذابِ الذي حلَّ بِهِمْ، وإيذانًا ببُعْدِ درجَتِه في الشِّدَّةِ والفظاعَةِ؛ والإشارَةُ راجِعَةٌ إلى العذابِ المُستفادِ مِنَ الفِعْلِ ﴿وَعَذَّبَ﴾[1].

بلاغةُ التَّذْييلِ:

بَيانُ جَزاءِ مَنْ كانَ عَريقًا في الكُفْرِ، موغِلًا فيهِ

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تذييلٌ غيرُ جارٍ مَجْرى المثَلِ؛ لعَدمِ استقلالِهِ، ولافتقارِهِ إلى ما قبلَه، في الكشْفِ عَنْ تمامِ المرادِ منه، وقد ورَدَت جُملَةُ التَّذييلِ تعميمًا لحُكْمِ عذابِ الكافرينَ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/158.

وذلك أنَّ اللهَ سبحانَه لـمَّا ذَكَرَ ما عذَّب بهِ الكَفَرَةِ في حُنيْنٍ؛ أَتْبَعَهُ ببيانِ جزاءِ كُلِّ مَنْ كان عريقًا في الكُفْرِ، موغِلًا فيهِ[1].

دلالَةُ الخَبَرِ:

التَّهديدُ البَليغُ، والوعيدُ الأَكيدُ، على مُطْلَقِ الكُفْرِ

الجُمْلَةُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، جُمْلَةٌ خبريَّةٌ، يُرادُ بها إعلامُ المخاطَبِ بالحُكْمِ الذي تضمَّنَتْهُ، معَ ضميمَةِ مَعْنًى آخرَ، وهو التَّهديدُ البليغُ على الكُفْرِ، ووَجْهُ ذلك: أنَّه إذا كانَ هَذا الوعيدُ والتَّهديدُ بالعذابِ، على مَن أَوْجدَ كُفْرًا في زمنٍ ما، فكيفَ بِمَن رسَخَ فيه؟![2].

دلالَةُ اللَّامِ في لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

مَـن لا يَـديـنُ بالإسْلامِ - وقد بلغتْهُ الدَّعوة - فجزاؤُه العذابُ في الآخِرة

اللَّامُ في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مِن قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، يُرادُ بها الاستغْراقُ، أي: أنَّ لكلِّ الكُفَّارِ الجزاءَ المَذكورَ؛ لما تَقرَّرَ في الشَّريعَةِ مِن أنَّ كلَّ مَن لا يَدينُ بدينِ الإسْلامِ - وقد بلغتْهُ الدَّعوة بصورة صحيحة - فإنَّه مُعَذَّبٌ إذا ماتَ على ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ١١٦﴾ [النّساء: 48]، ويجوزُ أن تكون اللَّامُ لِلْكَمالِ، والمعنى: وذلك جزاءُ الرَّاسِخينَ في الكُفْرِ، الكامِلينَ فيهِ، الذين آثَروا محبَّةَ الأقاربِ والأموالِ، على محبَّةِ اللهِ سبحانَه ومحبَّةِ رسولِهِ [3]ﷺ، ولا تعارُضَ بينَ المَعْنَيَيْنِ، بل يَجوزُ إرادَتُهُما معًا، ويكون المعنى: وذلكَ العذابُ جزاءٌ للكافرينَ الكامِلينَ في الكُفْرِ كُلِّهِمْ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/426.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/427.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/426.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»